الفصل الأول

الطفولة المرهقة

[.. إنك إذن لسعيد] !!

كان ذلك فى طفولته الغضّة الناضرة .

وكان أبوه « عبدالعزيز بن مروان » يحكم مصر والياً عليها لأخيه الخليفة الأموى « عبدالملك بن مروان » حيث لبث « عبدالعزيز » فى ولايته هذه عشرين عاماً .

وغادرت « أم عاصم » المدينة المنورة حيث كانت تقيم ، لاحقةً بزوجها « عبد العزيز » فى مصر. مصطحبة معها ولدهما الحبيب « عمر » . . .

وفى « حلوان » التى اكتشف عبدالعزيز جمال مُناخها فاتخذها مُنتجعاً ومُستراحاً ، راح الطفل المتفتح يجرى فى مرابعها ، ويعبّ من هوائها .

وذات يوم ، دخل حظيرة الخيل ، فركضه جواد ، فشَجَّه وأدماه وحمل الطفل الجريح إلى داره ، وما كادت أمه تبصره حتى أخذها الروْع ، وفجعها المشهد .

واستُدعى أبوه ، فجاء على عجَل ، ورأى الدم يغطى وجه ولده ، والشجَّة الفاغرة تنزّ . .

وقبل أن يغشاه الأسى ، طوّفت بخاطره ذكرى ألقت على محياه تهلُّلا وعلى ثغره ابتساماً . . .

ولما فرغ من تضميد جرح طفله الحبيب ، رَبَّتَ على كتف زوجته والبسمة تزداد على شفتيه اتساعاً وتألقاً ، وقال :

« أبشرى ، ياأم عاصم » !

ثم بسط يمناه يداعب بها رأس ولده ، وعيناه تُحدّقان فى وجهه الشاحب الوديع ، وراح يقول له :

« إن تكن أشَجَّ بنى أمية ، إنك إذن لسعيد » . . ! !

فماذا كانت الذكرى التى أثارها هذا الحادث ؟

وما شأن النبوءة التى أومأت إليها كلمات عبدالعزيز . . ؟ ؟

* * *

لنعد إلى الوراء كى نشهد النبأ من أوله . . فهناك فى تلك الليلة الشاتية ، حيث المدينة ساكنة ساجية ، قد أوَى الناس فيها إلى دورهم ومضاجعهم يلتمسون الدفء من ذلك الصقيع الراعد ، إلا رجلا واحداً أفزعته مسئولياته — وقد كانت دائماً تفزعه — فنَضا عنه غطاءه ، وخرج إلى طرقات المدينة التى خلت من كل حىّ ، ولم يبق بها سوى كتل الظلام ، وعُواء الريح . .

خرج الرجل وحده يتعسّس ، فلعلّ هناك جائعاً ، أو مريضاً ، أو مقهوراً ، أو ابن سبيل . . .

لعل هناك شأناً من شئون الناس قد غاب عنه ، والله سائله عنه ومحاسبه عليه . . فالرجل خليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين .

أجل . . إنه هو — عمر بن الخطاب — رضى الله عنه وأرضاه .

وطال تعسُّسه وتطوافه حتى أدركه التعب ووخزه الصقيع . فلاذ بجدار دار صغيرة فقيرة ، وجلس يستريح قليلا ليستأنف خطوه فيما بعد إلى المسجد ، فقد أوشك الفجر أن يجيء . .

وإذ هو فى مُتَّكَئِه ، سمع حواراً داخل الدار .

كان الحوار يجرى بين أم وابنتها حول ذلك القَدْر الضَّحْل من اللبن الذى جاد به ضرع شاتِهما فى ذلك الهَزِيع ، وكانت الأم تدعو ابنتها كى تخلط اللبن بالماء ؛ حتى يزداد ويفى ثمنه بحاجات يومهما الوافد . .

سمع أمير المؤمنين حوارهما :

الأم تقول لابنتها :

« يا بنية ، امذُق اللبن بالماء .

والبنت تجيب أمها :

« كيف أَمذُق ، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذْق ؟ ؟ وتعود الأم قائلة :

« إن الناس يمذُقون ، فامذُق ، فما يدرى أمير المؤمنين بنا إن مذَقْنا ، ولا يرانا . . » .

وتجيبها الفتاة :

« ياأماه ، إن كان أمير المؤمنين لايرانا ، فرَبُّ أمير المؤمنين يرانا ! ! ! »

واغرورقت عينا أمير المؤمنين بدموع الغبطة والفرح ، وسارع إلى المسجد ، فصلى الفجر بأصحابه ، ثم عاد مسرعاً إلى داره ، ودعا ابنه « عاصماً » وأمره أن يأتيه بحقيقة أهل تلك الدار .

وعاد « عاصم » إلى أبيه بمعلومات وافية عن الأم وابنتها ، وقص

أمير المؤمنين على ولده ماسمعه من حوار ، ثم قال له وقد كان مزمعاً على زواج :

« اذهب يابنى فتزوجها ، فما أراها إلا مباركة ولعلها تلد رجلا يسود العرب » ! !

وتزوج – عاصم – تلك الفتاة الفقيرة الشريفة الورعة وأنجبت له فتاة ، أسموها « ليلى » وكنّوها « أم عاصم » .

ودرجت « أم عاصم » هذه فى شبابها التقى النقى ، حتى تزوجها «عبدالعزيز ابن مروان » فولدت له « عمر بن عبدالعزيز» .

تلك إذن ذرية بعضها من بعض . . ولقد صدقت نبوءة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الفتاة المباركة .

بيد أن هذا الجزء من النبوءة ، لم يكن هو الذى دار بخَلَد « عبد العزيز ابن مروان » حين قال لطفله الجريح :

« إن تكن أشجَّ بنى أمية ، إنك إذن لسعيد »

فللنبوءة بقية أخرى ، هى التى استجاشت الذكرى فى وعى عبدالعزيز .

ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . رأى ذات ليلة رؤيا نهض من نومه على أثرها يعجب ويقول :

« مَن هذا الأشجُّ من بنى أمية ، ومن وَلد عمر يسمى عمر ، يسير بسيرة عمر . . ويملأ الأرض عدلا » . . ؟ ؟

رأى « عمر » هذه الرؤيا . واستشرف ذلك الغيب قبل أن يولد حفيده « عمر بن عبد العزيز » بقُرابة أربعين عاماً ! !

وانتقل ابن الخطاب رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى ، وظلت نبوءته هذه تُدَوِّى بين أهله وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلاَمة فى وجوه أبنائهم .

وحين وُلد لعبد الله بن عمر ابنه « بلال » وأصيب فى طفولته بشجَّة فى وجهه ، حسبوه المبَشَّر الموعود ، لكن الأقدار تخطته حتى جاء اليوم الذى شُجَّ فيه وجه ابن عبد العزيز . فتذكر أبوه النبوءة القديمة ، وقال قولته المفعمة بالرجاء والأمل . .

« إن تكن أشج بنى أمية ، إنك إذن لَسعيد » ! !

* * *

هذه إحدى ظواهر الإرهاص فى طفولة – بطلنا – وليست كل الظواهر .

فلسوف نرى إرهاصات طفولته تُغطى ببشائرها كل مجال ، وتتكامَل بالقدر الذى سيكون عليه تكامُل الدور العظيم لحياة الرجل فى – عمر بن عبدالعزيز – وحياة الخليفة فيه . .

وهذا الإرهاص لا يتمثل فى تلك العلامة الجسمانية التى أحدثتها شجَّة الوجه فحسب . .

بل يتمثل فى ذلك الانتماء المزدوج للنقيضين الكبيرين :

عمر بن الخطاب وسلالته التقية الورعة .

والأمويين ، وسلالتهم المتقحمة المستهترة .

وهنا يجاوز الإرهاص شخص – عمر بن عبدالعزيز – إلى دائرة أوسع ، ومغزًى أبعد . .

فكأنَّ القدَر ، وقد أمهل بنى أمية حين اغتصبوا الخلافة . وأحالوها إلى ملك عَضُوض ، وإلى مزرعة أموية ، قد قرر أن يجيئهم برجل منهم ، يُذيع على الملأ وثائق إدانتهم ، ويرد إلى دين الله حقيقته المضيئة ، وإلى دنيا الناس

عافيتها الغائبة ، وإلى منصب الخلافة كرامته وتُقاه . . ! !

ثم يكون للدنيا بأسرها آية على مايستطيع الإسلام العظيم أن يصنعه حين تتقمَّص رُوحه الغلاّبة المشرقة رجلا من الناس ، فتحيله إلى نور إلهى معجز ؛ حتى حين يجىء هذا الرجل من أصلاب أولئك الذين ملأ أكثرهم الأرض فساداً وبغياً ! !

° ° °

على أن هذا النوع من الإرهاص كان يدور خارج شخصية الطفل الموعود . .

هو إرهاص يديره القدر بنفسه ولحسابه ، دون أن يكون للطفل دخل فيه ، أو عِلم به . .

فلننظر الآن نوعاً آخر من ذلك الإرهاص ، كانت شخصية الطفل مادَّته وأداتَه . . وكان مظهراً لجهده الذاتى فى اكتشاف نفسه ، وبناء شخصية ، حيث نبصر رغبات الطفل ، تشير إلى مستقبل الرجل . . وحيث نلمح فى اتجاهه النفسى والعقلى إبان طفولته من النضج والاستواء والرشد مايُرهص بِغَده ويبشر بمستقبله .

ولقد تحدث هو فيما بعد عن طفولته تلك فقال :

« لقد رأيتُنى بالمدينة ، غلاماً مع الغلمان ثم تاقت نفسى للعلم ، فأصبت منه حاجتى » ! !

ومن هنا تبدأ إطْلالَتُنا الواسعة على الإرهاص الذاتى لهذه الطفولة المباركة .

فلقد رغب الطفل إلى أبيه أن يغادر مصر إلى المدينة ليدرس بها ويتفقَّه .

والمدينة يومئذ منارة للعلم والصلاح ، تمتلىء بالعلماء والفقهاء ، والعبَّاد والصالحين .

كما أنها مجتمع يموج بالنبوغ الإنسانى فى فنون الشعر ، والعزف والغناء .

ويستجيب – عبدالعزيز بن مروان – الذى كان من خيار بنى أمية وبنى مروان ، وأكثرهم قرباً من الهدى والتقى والصلاح . . يستجيب لرغبة ولده ، ويرسله إلى المدينة المنورة ، ويعهد به إلى واحد من كبار معلمى المدينة وفقهائها وصالحيها . . وهو « صالح بن كيسان » .

* * *

إن طفلا كصاحبنا ، نشأ فى قصور المُلك ، والنعيم . . يحمل لقب « سمو الأمير » . . وبين يديه ، بل ملء يديه من مناعم الحياة ومباهج الأيام أكثر مما يشاء . ما كان يُتوقع منه – وفى طفولته على الأقل – إلا أن تحمله أشواق الطفولة ورغباتها إلى دنيا اللهو والمرح والانطلاق .

فما باله ينأى عن ذلك كله ، وينزع بكل فؤاده وهواه إلى آفاق الرجال ، بل حكماء الرجال . . ؟ !

ثم مابال طفولته لا تُرهص ببعض خصائص اكتماله المقبل فحسب ، بل تُرهص بكل هذه الخصائص على نحو عجيب . . ؟ !

أجل . . إن كل تألُّقات سلوكه الذى سنراه عند ما يصير خليفة للمسلمين ، تبدو بشائرها فى حياة الطفل والغُلام مجتمعة متكاملة .

فخوفه الشديد من الله . .

وإقباله النهم على العبادة والعلم . . .

وتقديسه المطلق للحق ، ودحْضُه القوى للباطل . .

وولَعُه بمعالى الأمور . .

كل تلك الخصائص والسجايا التى ستشكل سلوكه وحياته فى أثناء خلافته ، نرى بشائرها كلها فى نشأته الباكرة تُزاول تدريبها الذكى فى توفيق عظيم .

فهو كما رأينا من قبل يرغب إلى أبيه كى يرسله إلى المدينة ليتزود من فقهها وعلمها قائلاً له :

« دعنى أذهب إلى المدينة ، فأجلس إلى فقهائها . وأتأدب بآدابهم »

ثم لايكاد ينزل بها حتى يلوذ بالشيوخ والعلماء والفقهاء ، متجنباً أترابه ولِدَاته . .

ويعكف على حفظ القرآن حتى يُتم حفظه فى زمن جدّ قصير ووجيز . .

ويقبل على العربية ، وآدابها ، وشعرها ، فيستوعب من ذلك كله محصولا وفيراً . .

وقد يبدو هذا النبوغ المبكر أمراً مألوفاً إذا هو قيس بالمستويات المتفوقة للطفولة الناجبة الذكية .

لكن هل يبلغ مثل ذلك النبوغ من ضمير طفل مايملؤه خشيةً لله ، وما يجعله يبكى وينتحب من مخافة الله . . ؟ ؟ !

لقد كان – عمر بن عبد العزيز – ذلك الطفل الورِع البكَّاء .

فاجأته أمه ذات يوم ، وهو فى حجرته وحده يبكى وينتحب ، فألقت نفسها عليه تسائله مادهاه ؟ فكان جوابه :

« لا شيء يا أماه ، إنما ذكرت الموت » . . ! ! !

وقد تراودنا الرغبة فى تفسير واقعة كهذه ، بأنها حالة عارضة . ربما أثارها مِزاج نفسى طارئ . . أو لعلَّه كطفل مُرهف الحسّ جزع من صورة الموت الذى سيسلبه مسرَّات هذه الحياة . .

بيد أن للصورة أبعاداً أخرى .

فمعلمه « صالح بن كيسان » فقيه المدينة العظيم ، يعطينا الصورة كاملة وهو يتحدث عن طفولة ابن عبد العزيز فيقول :

« ما خَبَرْتُ أحداً ، الله أعظم فى صدره من هذا الغلام » ! !

وحين يتحدث عالم فى منزلة « ابن كيسان » أنه لم ير أحداً [اللهُ أعظم فى صدره ، من هذا الغلام] ، فإننا نجد أنفسنا أمام نموذج إنسانى نادر المثال . . ! !

ذلك أن هذا القدر من الورع وخشية الله وإجلاله . إنما يُواتى الأفذاذ من الصالحين بعد أن يكبروا ويتقدم بهم العمر . . أمّا وهم غلمان صغار فهيهات . . إلا أن يكون واحداً من أولئك الذين يَصْطَنِعهم الله لنفسه ، ويَصْنَعُهم على عينه . . ! !

* * *

وتَبهرنا طفولة « ابن عبد العزيز » بطريقتها فى اختيار القدوة والمَثَل الأعلى . .

فقد رأينا الغلام يجنح بكل ثقله الوجدانى والعقلى إلى جانب الشيوخ بما معهم من دين ، وحكمة ، وفقه ، وخُلق .

ثم يذهب فى تمييز مثله الأعلى واختياره وتحديده مذهباً يبهر الألباب . فالغلام الصغير ، لايستمد مثله الأعلى من بيئته التى تعجّ بالأمراء

والملوك ، ولا من دنياه الحافلة بالمباهج والزخرف . . ولا من الرُّؤى والأحلام المناسبة لسنه وطفولته .

إنما يرسل بصيرته الذكية إلى الآفاق البعيدة والمجيدة لتعود إليه بمَثله الأعلى ، متمثلاً فى شخصٍ أعظم ، وأعلم ، وأورع ، وأتقى أهل زمانه — ذلكم هو « عبدالله بن عمر بن الخطاب » ! !

و« عبدالله بن عمر » هو عَمُّ والدة عمر بن عبدالعزيز . . فهو منه بمثابة الجَدِّ ، وإن رأينا الغلام يحلو له أن يدعوه بخاله .

لقد راح منذ نزل المدينة يلوذ به ويلازمه ، ويتلقَّى عنه ، ويتأسَّى به . . وكان إعجابه به شديداً ، فهو دائم الإشادة بعلمه . وورعه ، وسخائه ونُبل روحه .

ولطالما كان يداعب والدته بهذه الكلمات المصمِّمة .

« تعرفين يا أماه ! ! ؟ ؟ لأكُونَنَّ مثل خالى ، عبدالله بن عمر » ! !

إنها روح كبيرة . .

أكبر عشرات المرات من جسم صاحبها الغضّ ومن سنه الناشئة . .

إنها روح غلام يتعجل رجولته ، ليس لما فيها من فتوة . . وزَهو . . بل لما فيها من اكتمالٍ لفضائله وازدهار لخصائصه وشمائله . .

* * *

وفى طفولة — ابن عبدالعزيز — نرى احتراماً للنفس ، نادر المثال .

فهو لا يتجنب اللهو المباح لأمثاله وأنداده فحسب . . بل يأخذ نفسه أخذاً وطيداً بما لا يقدر عليه سوى أولى العزم من الرجال ! !

وهو لا يتجنب من الأخطاء ما يُحاسَب عليه الكبار ، ويُغتفر للصغار . .

بل يتجنب منها كل خطأ كبير أو صغير .

فرذيلة كالكذب – مثلا – يواجهها الغلام بمقت شديد ، ورفض أكيد . .

ولسوف نسمعه يتحدث فيما بعد عن نفسه فيقول :

« ما كذَبْت مُذ شددتُ علىَّ إزارى وعلمتُ أن الكذب يضر أهله » ! !

* * *

وفى طفولته الراشدة ، تبهرنا الاستجابة الفريدة التى كان الغلام يتوسل بها لتصحيح ما يتكشف له من خطأ ، وتنمية ما يُتاح له من سَداد .

حدث يوماً أن تأخر بعض الوقت عن صلاة إحدى الفرائض مع جماعة المصلين بمسجد الرسول فى المدينة .

وسأله معلمه ومؤدبه « صالح به كيسان » عن سبب تأخره فأجاب الغلام فى صدق : [كانت مُرَجِّلَتى تمشط شعرى] وقال له أستاذه فى عتاب : [أوَتُقدم تصفيف شعرك على الصلاة] . . ؟

وكان – عبدالعزيز بن مروان – قد أوصى « صالح بن كيسان » أن يكتب إليه دوماً بكل أخبار ولده ، فكتب إليه عن هذه الواقعة ، فجاء أمر عبدالعزيز إلى ولده أن يحلق شعر رأسه جميعه . . ! !

وهنا نبصر الغلام وهو يزيل أنصع مظاهر وَسامته وأناقته . . يفعل ذلك وهو ممتلئ النفس غِبطة ورضاً ، ليس فقط لأنه عرف كيف يمتثل ويطيع حيث يجب الأمتثال وتلزم الطاعة . . بل لأنه وجد فى ذلك تكفيراً عن خطئه الذى اجترحه حين ترك رغبته فى استكمال أناقته ووجاهته

تؤخره بعض الوقت – لا كُلَّ الوقت – عن موعد الصلاة . . ! ! !

* * *

إن التطلع إلى السَّداد يحدو روح الغلام بشكل فَذّ – سدادِ الشعور وسداد التفكير ، وسداد الإرادة ، وسداد السلوك .

وهو ، على الرغم من كونه مجرد غلام صغير لاينظر إلى نفسه كأمير ، له الحق فى كثير أو حتى فى قليل من التدلُّل والامتياز .

بل هو ينظر إلى نفسه كإنسان عادى . لروحه وحدها الحق فى الامتياز بما تكتسبه من معرفة ، وفضيلة ، وصواب . .

ونعود فنقول : إن المعجز فى هذا كله ، أن بَطَله ليس إلا مجرد غلام . . غلام فى سِنّ اليَفاع . . ! !

وغُلام وُلد فى أحضان النعيم ، ونشأ فى دنيا حافلة بالترف والإغراء . . ! !

ومن أبهى مظاهر استجابته الرشيدة لتصحيح الخطأ ، واستكمال الرشد ، هذه الواقعة التى يرويها مؤرخو سيرته . .

فلقد كان – فى طفولته – متأثراً بموقف الأمويين من الإمام على كرم الله وجهه ، وبالأباطيل التى روجوها ضده . ولم يكن الغلام قد تبين بعدُ وجهَ الحق فى الصراع الذى نشب بين الإمام الراشد الشهيد ، وبين العائلة الأموية . . .

وحدَث يوماً أن ذكر الإمامَ بسوء ، وانتقلت كلمته إلى شيخه الصالح « عبيد الله بن عبد الله بن عتبة » الذى كان – عمر – يكنّ له أعظم الحب والتوقير .

وذات يوم ذهب الغلام لزيارة الشيخ ، فأعرض عنه ولم يغمره بما عوده من وُدّ . .

وأدرك الغلام أن فى نفس شيخه شيئاً منه ، فحاول بسؤال جانبى أن يتبين الأمر ، فانفجر فيه شيخه قائلا :

« متى علمتَ أن الله سَخِط على أهل بدر ، بعد أن رَضِىَ عَنهم » . . ؟ !

وفهمها الفتى الذكى الرشيد من فوره . . !

فهم أن أدنى مزايا « الإمام على » . . وأقل فضائله ، وخصائصه ، أنه من أهل بدر الذين أخبر الرسول أن الله نظر إليهم فقال لهم :

« اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

وصحا على هذه اللفتة من شيخه صحوة ذكية رضيّة ، وأقبل عليه يقول له فى خشوع وندم :

« معذرة إلى الله . . ثم إليك »

« والله لا أعود لمثلها أبداً » . . ! ! ! !

ثم عكف على دراسة القضية من جديد بعيداً عن لغو الأمويين وأباطيلهم ، حتى اهتدى إلى الصواب فى يُسر ، وتحولَّ إلى مُنافح عن الإمام العظيم . . حتى لقد جلس يوماً – كما يروى لنا بعض المؤرخين – بين نفر من العبّاد والصالحين راحوا يستعرضون فيما بينهم أقطاب الزهد والورع فى الإسلام ، فإذا ابن عبدالعزيز يصدع فيهم بهذه الكلمات .

« أزهد الناس فى الدنيا ، على بن أبى طالب عليه السلام » ! ! !

* * *

إن الحديث عن الطفولة المرهصة للأغرّ ابن عبد العزيز لايكاد يُؤْذن بانتهاء إذا نحن استطردنا وراء وقائع الحياة المتسامية للطفل وللغلام .

ولقد تجلّت فى تلك السنوات الباكرة الناضرة عزيمة ماضية مقتدرة ، راحت تحرك دوافع الغلام وتقودها على طريق الخير والفضيلة والكمال ، حتى استطاعت طفولته أن تكون نموذجاً متكامل الخصائص والسّمات لسنوات خلافته التى ستجىء بعد ذلك بقرابة ثلاثين عاماً . ، والتى ستكون آية من آيات الله الكبرى ، ومعجزة فريدة من معجزات الإسلام . .

وعلينا الآن أن نتابع هذه الطفولة الفذّة . . أو بتعبير أصح ، علينا أن نجاوزها ونتخطاها ، لنواجه مرحلة أخرى من مراحل تلك الحياة العجيبة المثيرة الجليلة ، ربّما نبلغ فيما بعد ، عصر الخلافة والإعجاز .